ketab.me

رياض نجيب الريّس

Twitter: @ketab_n
28.3.2012

المفكّرة الأندلسية

أموي في غرناطة
دمشقي في قرطبة

RIAD EL-RAYYES BOOKS

Eqla3 Library
All rights reserved -eqla3.com

Ketab.me

رياض نجيب الريّس

المفكّرة الأندلسية

أموي في غرناطة
دمشقي في قرطبة

Eqla3 Library
All rights reserved -eqla3.com

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES
BOOKS

Twitter: @Ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ANDALUSIAN DIARY

By:

Riad Najib El-Rayyes

First Published in January 2000
Copyright © **Riad El-Rayyes Books S.A.R. L.**
BEIRUT - LEBANON

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1 85513 416 0

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form
or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording
or otherwise, without prior permission
in writing of the publishers

هذا الكتاب
على شبكة الانترنت:
http://www.elrayyesbooks.com
E-MAIL: el-rayyes@inco.com.lb

تصميم الغلاف: محمد حمادة

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

إلى جميع المصابين
بالحمّى الأندلسية!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

١ ـ غرناطة

يوميات أموي ١١

٢ ـ قرطبة

يوميات دمشقي ٣٧

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١ ـ غرناطة

يوميات أموي

■ «قيل لملكٍ بعد ذهاب المُلك:

ـ ما الذي أذهب ملككم؟

قال: ثقتي بدولتي، واستبدادي بمعرفتي، وإغفالي استشارتي، وإعجابي بشدتي، وإضاعتي حيلتي، وتقليدي كبار الأعمال صغار الرجال».□

سراج الملوك

محمد بن الوليد الطرطوشي

ماذا يفعل صحافي عربي مثلي، شوّهته الكتابة السياسية سنوات عجافاً طويلة، وأثقلته متابعة الأخبار، واستعصى عليه فهم أحداث أمته، وأضناه تحليلها، وتاه في تناقض مواقف سياسييها، أمام مشهد ثقافي حضاري وفني لا يتكرر إلاّ مرة كل عدة سنوات؟ قد يتذكر أنه شاعر سابق، وأنه هاوٍ للفنون الجميلة

Twitter: @ketab_n

أصدر «الناقد» لسنوات سبع خصاب، وجامع متواضع للوحات عدد من رسامي بلاده، وأن له كتاباً في النقد. ويتذكر أكثر، أنه، وإن كان قارئاً مقلّاً هذه الأيام للأدب والشعر والقصة، يريد أن يستعيد هويته الثقافية بانتصار الحيوان الثقافي على الحيوان السياسي في داخله. ويدرك أن هذا الصراع لن يكون بالأمر السهل لولا أن المدخل إلى الحلبة واحد: هواية التاريخ.

واستحوذ عليه التاريخ، وهو في غرناطة حيث تمَّ في ٩ تشرين الأول ١٩٩٨، توزيع جوائز مؤسسة الآغاخان للعمارة، وهي أكبر جائزة معمارية في العالم على سبعة مشروعات بارزة ومميزة. وألحّت عليه مجموعة من الأسئلة حول المباني المشيّدة في دنيا الإسلام الواسعة وهو يتطلع حوله بحثاً عن الثقافة المعمارية العربية وقد شوّهتها سياسة التحديث، وإن كان قلبه قد امتلأ فخراً للأعمال التي ورثها العرب والمسلمون عن ماضيهم.

Twitter: @ketab_n

وارتسم سؤال على وجهي: ما هي علاقة الصحافي بالعمران، والصحافة بالعمارة والمعمار؟ وألحّ هذا السؤال أكثر فأكثر، عندما اكتشفت أنني سأكون أحد عدد قليل من الصحافيين فقط الذين جاؤوا غرناطة، برفقة حوالى مئة من أهم وألمع المهندسين المعماريين في العالم، وفي وسط أروع أثر معماري عربي إسلامي في الدنيا.

وشعرت بانقباض شديد عندما اكتشفت أنني لا أملك من المصطلحات الهندسية ولا من مفردات الكتابة المعمارية شيئاً، وبالتالي لست قادراً على صياغة جملة واحدة تهم أحداً من مشاهير المهندسين المعماريين الذين كنت برفقتهم في غرناطة. وأردت أن أتسلح بزملائي الصحافيين الآخرين، على أمل أن يفوق جهلهم جهلي.

وشعرت أن حجمي قد تضاءل أكثر فأكثر. فأنا لم أكتب شيئاً عن أي مشروع معماري أو إسكاني أو أثري في كل حياتي الصحافية. لكنني

Twitter: @ketab_n

قلت لنفسي: ما دمت قد صرت في غرناطة وفي وسط الحمراء، فلأحاول أن أراهما: المدينة والقصر، بعيون عربية، لعلني بحدس الصحافي وولعه العاشق للتاريخ، بأمجاده وعمرانه، وشغف الكاتب وفضوله لِسبر أغوار ما لا يعرفه، أستطيع أن أفهم شيئاً عن العمارة العربية ـ على الأقل ـ في الأندلس.

□ □ □

■ الأقدار لا يفنيها الزمن، فلكل زمان عند العرب دولة ورجال. والحمراء تاريخياً، هي القصر العربي الوحيد الذي بقي إلى اليوم من العصور الوسطى. ولكن بقاء قصر الحمراء لم يكن ليعني شيئاً للعرب وللعالم، لولا أنه قمة جمالية لا تضاهى. ولعل جمال العمارة الإسلامية ظل يشع في ظلمات الكون قروناً وراء قرون، حتى شكل «ثلاثية» هي آية جمال في أي عصر من العصور، مؤلفة من: قصر الحمراء في غرناطة، وحدائق

Twitter: @ketab_n

شاليمار في لاهور، وقصر توبكابي في اسطنبول. وبعضهم يقول «رباعية» هي تاج محل في اغرا بالهند.

لكن قصر الحمراء كان شيئاً آخر. فالعرب كانوا يبنون ليومهم وليس لغدهم، لأنهم كانوا يعرفون أن «كلّ من عليها فان» إلّا وجه ربهم. لذلك كان الحمراء قصراً ناعماً هشاً رقيقاً. والمعجزة أنه بقي معنا إلى اليوم. فقد بناه عرب بني الأحمر، كما كان يضرب العرب خيامهم في الصحراء، إنما بأعمدة رخامية وبحجارة وقرميد وأخشاب. وكانوا يعرفون أن هذه الخيمة الكبيرة ستطوى عند رحيلهم مع الزمن. ولكنها كانت أقوى من الزمن. فزالت الدول وزال الرجال وبقي قصر الحمراء.

ولأن قصر الحمراء كان مضرباً كبيراً لعرب قدموا من الصحراء، عطشين للماء والخضرة، فقد جعلوا إلى جانبه حدائق كلوحة من لوحات الجنة فيها يسري الماء في كل مكان، سواقي ونوافير وأقنية.

Twitter: @ketab_n

وأثبت عرب الأندلس أن ليس هناك تناقض بين فقر عرب البادية وبين الفن والجمال. كما أثبتوا أن ليس هناك تناقض بين الفن الراقي والجمالية الأخاذة وبين بناء القلاع والحصون لأسباب دفاعية.

بسبب هذه الرقة الجمالية، لم يستطع الملك عبد الله، ملك الأردن، ومؤسسها، عندما زار الحمراء عام ١٩٤٩، إلاّ أن يقول وهو يقف في ساحة الأسوْد متلمساً أحد الأعمدة المطرزة بآيات من القرآن الكريم: «الآن عرفت لماذا ترك العرب إسبانيا». وكان هذا تعليقاً من ملك بدوي جاء من الصحراء، فاعتبر أن هذه الجنة التي بناها العرب في غرناطة وهذه النعومة الغنية هي أكثر مما يطاق احتماله!!

وإذا كان الأحمر هو لون ملوك غرناطة، الذين كانوا يكتبون رسائلهم على ورق أحمر، والتي عرفت فيما بعد بـ «الرسائل الحمراء»، فإن الأبيض

Twitter: @ketab_n

كان اللون الآخر. وإذا بالأحمر والأبيض، هما لونا المُلك والجلالة. لكن ملوك الإسبان الذين جاءوا من بعد العرب، حفظوا قصر الحمراء، بلونيه الأحمر والأبيض، بإقامة حزام أخضر من الحدائق والممرات حول القصر، فأضافوا بذلك لوناً آخر ـ الأخضر الزيتوني ـ إلى لوني الملك.

وبين زحام الألوان في قصر الحمراء، دفعني فضولي الصحافي إلى أن أسأل غرناطياً كان رافقني، عن رأيه في الحمراء. فقال لي: «إذا سألت أي إسباني غيري عن الحمراء فسيقول لك إنه عربي، ولكنه في الوقت نفسه إسباني، قطعة قطعة. لقد ظل قصر الحمراء معنا أكثر مما ظل مع العرب. إنه مرتبط فينا. مرتبط بهذا البلد المعقد الذي اسمه إسبانيا. نحن رعيناه وسقيناه وحافظنا عليه خمسمئة سنة. لولا الإسبان لما كان هناك الحمراء. لقد وقعنا في حبائله وعشقناه».

وأدركت أن قصر الحمراء يعيش في غرناطة اليوم

Twitter: @ketab_n

لأنه في حماية أكبر القوى التي تشد البشر إلى بعضهم. لقد عاش الحمراء في حماية الحب.
من وقتها لم أشعر أن الصحافة دخيلة على العمران.

□ □ □

■ في غرناطة وضعت يدي على تاريخ الجرح العربي. عثرت على ضالتي. عرفت السر العربي الكبير الذي شغلني طوال السنوات العشر الأخيرة على الأقل. وجدتها، وجدتها. إذ لم يكن هذا السر الضالة إلّا مجرد تاريخ تبدأ به الأشياء وتحدد به الأمور وتنتهي عنده الظروف. كالتقويم: قبل الهجرة وبعد الهجرة. قبل الميلاد وبعد الميلاد. السنة القمرية والسنة الشمسية.

في غرناطة قبضت على تاريخ الذل العربي. عرفته. أحسست به. تلمسته. توقفت عنده وتطلعت فيه طويلاً. ١٦ كانون الثاني ١٤٩٢ يا لتعاسة هذا التاريخ! يوم سقوط غرناطة. آخر دولة عربية في الأندلس وآخر يوم عربي في

Twitter: @ketab_n

إسبانيا. وأقنعت نفسي، وأنا أطل من «برج دمشق» في قصر الحمراء على رحاب سهول غرناطة وقمم جبال «سييرا نيفادا»، أن الذلّ العربي بدأ هنا قبل خمسمئة سنة. وإذا كان لكل أمر بداية وبالتالي نهاية، فإن مَن هو مؤمن مثلي بحتمية الدورة التاريخية في حياة الشعوب والأمم، لا بد من أن يقرّ أن ذلك التاريخ كان اليوم الحاسم في المأساة القومية التي نعيشها في نهاية القرن العشرين.

وقررت، أنا العربي الدمشقي القادم من أعماق التاريخ الأموي إلى بقايا أمجاد العرب في الأندلس، أن أقبض على شخص صاحب ذلك التاريخ بيدي. ولم يكن لي سوى هاجس واحد في غرناطة: أن أجده.

سألت عنه في كل مكان. بدأت بحثي عنه في قصره، في الحمراء. في ساحة الأسوْد، وفي ساحة الريحان. في قاعة السفراء وقاعة الملوك. في باب

Twitter: @ketab_n

الشريعة وفي رواق البركة. سألت عنه نهاراً وسألت عنه ليلاً، إذ قيل لي إنه قد يكون بين المعماريين الذين بنوا هذا القصر العربي العظيم ـ كما تقول الأسطورة ـ في الليل وعلى ضوء المشاعل، فأعطى لهيبها المحمرّ اللون الأحمر للقصر فأصبح الحمراء. لكن القصر كان أحمر بلون حجارته نهاراً وليلاً وبسكانه من ملوك بني الأحمر دائماً.

بحثت عنه في نقوش الجدران وفسيفساء القبب وقناطر الأروقة. «لا غالب إلّا الله». «لا غالب إلّا الله». شعار بني الأحمر منقوش في كل زاوية ومكان. لعله يكون مختبئاً بين ثنايا هذا التطريز الحجري. قيل لي: قد يكون في غرفة نومه يتلصص على الحريم في الحمامات ـ كما تقول الحكاية ـ يرمي بتفاحة للمرأة التي تعجبه فتأتيه إلى مخدعه. بل نصحني أحدهم بأنه قد يكون مختبئاً في «برج الحمراء» حيث استقبلت الملكة

Twitter: @ketab_n

إيزابيلا، قاهرة العرب في إسبانيا، كريستوف كولومبوس وأذنت له بالإبحار لاكتشاف أميركا. وتصورت لو أن ملكة عربية كانت هناك لتأذن لبحار عربي كابن ماجد في ارتياد الفضاء اليوم.

قيل لي إنه يتمشى مع السياح في حدائق القصر التاريخية التي بناها أجداده على صورة جنة، وإنه يقرأ أشعار ابن زَمْرَك الأندلسي وقد نزعها من جدران القصر. بل إن أحد السياح قال لي إنه شوهد يتناقش ويتشاجر مع جده يوسف الأول وجده محمد الخامس، اللذين بنيا قصر الحمراء، لأنه سلمه إلى الإسبان من دون أن يذكر قول أمه، عندما علمت أنه سيسلم المدينة: «تذكر أن أجدادك ماتوا ملوكاً لغرناطة، وأن هذه المملكة ستموت معك». ولم أجده.

وعدت للسؤال عنه في كل مكان. في كل بيت عربي الملامح. عند كل نافذة تشبه نوافذ حي من أحياء دمشق القديمة. في كل سوق شبيه بسوق

Twitter: @ketab_n

الهال أو سوق الخيل أو سوق ساروجة في الشام. في كل الدكاكين التي كأنها فروع من دكاكين سوق الحميدية أو البزورية. قرعت كل أجراس الكنائس لعله متنصر كغيره من العرب الذين ظلوا بعد النصر الإسباني، فيسمعني. طرقت باب كل بيت في «البالياسين» كما يسميه أهالي غرناطة اليوم، أو «البائسين» كما كان يسميه العرب قبل خمسة قرون. لا أحد استطاع أن يقول لي ما إذا كان موجوداً هناك، ولا أحد استطاع أن يقول لي ما إذا كانت تسمية الحي العربي بالبائسين هي من بأس أم من بؤس. ولم أعثر له على أثر.

استفسرت عنه راقصات الغجر في كهوف غرناطة القديمة. قالت لي الغجريات إنه غادر غرناطة قبل خمسمئة سنة ولم يعد. وقالت لي راقصات الفلامينكو بعيونهن العربية الجارحة، إنه شوهد لآخر مرة وهو يغادر غرناطة باكياً ملكه كالنساء، لأنه لم يعرف أن يحافظ عليه

Twitter: @ketab_n

كالرجال. حدّثنني عنه بلغة العيون العربية ولغة الأقدام الإسبانية. قالت لي غجريات الفلامينكو بقوامهن الممشوق وشعرهن المرفوع بكبرياء عربية فوق الجباه، إن أمهاتهن كن يتحدثن عنه بأسىً بالغ ويشدن بكرمه وحبه للرقص والموسيقى، وإن عازفي الغيتار منذ أيامه إلى اليوم لم يعرفوا رجلاً بكرمه وحبه للوتر.

سألت عنه أشجار البرتقال والنارنج في صحن كل بيت دمشقي في غرناطة، عند كل فسقية ماء، وقرب كل ياسمينة أو ريحانة تطل من فوق سوق «كرمة» أندلسية، أو «كارمن» إسبانية أو حديقة بأي لغة أخرى. وكان الجواب، وقد أعياني البحث، أنه إذا لم يشاهده أحد من زمان، فإن الكل كان يعرفه. إلى أن ملَّ أهالي غرناطة سؤالي وقالوا: لماذا تبحث عنه وبهذا الإلحاح؟

قلت: إنني أبحث عن «أبو عبد الله الصغير»، آخر ملوك بني الأحمر وآخر سكان قصر الحمراء وآخر

Twitter: @ketab_n

العرب في الأندلس، حتى أخنقه بيدي.

قالوا: ولماذا تريد أن تخنقه؟

قلت: أريد أن أخنقه لأن «أبو عبد الله الصغير» صاحب غرناطة هو صاحب هذا الزمان العربي الرديء. هو صاحب مأساة التيه العربي الذي نعيشه اليوم. هو عضو مؤسس ومشارك وفعّال وأصيل ورديف في حزب الهزيمة العربية الدائمة.

قالوا: وماذا كنت ستقول له قبل أن تخنقه؟

قلت: كنت سأسأله: كيف يكون طعم الهزيمة التافهة خارج أسوار الحمراء وخارج غرناطة بالمقارنة بطعم الموت الصامد المضرج بالدم الأحمر لآخر ملوك بني الأحمر. أيهما الأكثر حلاوة؟ كنت سأسأله عن ملوك الطوائف عنده وكيف هزموه. وربما أحدثه عن زعماء الطوائف في عصرنا اليوم، فنقوم بدراسة مقارنة. كنت أريده أن يحدثني عن عصر الذل في أيامه فلعله يعزيني كعربي في ذل أيامي. كنت سأسأله ألفَ كيف

Twitter: @ketab_n

وكيف وكيف.. لكنني كنت سأصرخ في وجهه:

ويحك يا آخر ملوك العرب في الأندلس، يا آخر الأمجاد، يا بداية الذل. عد إلينا يا أبا العباد. الكل غافر لك. حتى أنا.

□ □ □

■ في غرناطة توقفت عند دكان صغير يبيع توافه الأشياء للسياح في حي «الباياسين» العربي، عند كومة مفاتيح قديمة صدئة مربوطة في سلسلة حديدية ومرمية على رفّ من الرفوف إلى جانب أحذية للبيع. عددتها، فوجدتها سبعة عشر مفتاحاً من النوع الكبير الذي لم يعد يصلح لأقفال هذه الأيام. وإلى جانبها كانت هناك كومة أخرى من المفاتيح الأصغر حجماً والتي علاها أيضاً الصدأ والعفن في رزمة مربوطة بشريط حديدي رفيع. وكانت أيضاً من النوع الذي لا أقفال له اليوم. وعددتها فوجدتها عشرين مفتاحاً.

Twitter: @ketab_n

وسألت صاحب الدكان عن هذه المفاتيح. وكان رجلاً مسنّاً، وإلى جانبه زوجته البدينة التي تشع نضارة وحيوية، وإن كانت تزيده بعدد السنين.

قال لي: من أي بلد أنت؟

قلت له: أنا عربي من دمشق. من بني أمية، نحن الذين فتحنا الأندلس وأقمنا قرطبة وإشبيلية وغرناطة.

قال: إذن، لن تشتري من عندي شيئاً.

قلت: قد أشتري من عندك إذا أجبتني على سؤالي عن هذه المفاتيح.

قال: إنها ليست للبيع.

قلت: إنني أسألك عنها، ولا أريد أن أشتريها.

عندما وصل الحديث إلى هذا المنعطف، كان الوقت قد بلغ الظهر وقد قاربت ساعة القيلولة وأخذ الزبائن يغادرون الدكان. تطلع صاحب

Twitter: @ketab_n

الدكان العجوز إلى ساعته وكأنه على وشك أن يضحي بأكثر ما يستطيعه أي إسباني، وهو «السياستا». وتمتم ببضع كلمات بالإسبانية، سرعان ما تدحرجت كتلة اللحم الأبيض النضرة التي هي الزوجة وأغلقت الباب وأسدلت الستائر عليه وقلبت لافتة صغيرة مكتوب عليها: «مغلق» من الداخل إلى الخارج، وعادت بالسرعة نفسها إلى جانب زوجها وكأنها تنتظر نطقاً سامياً.

تطلع صاحب الدكان إليَّ من فوق إلى تحت، وكأنه يائس من كوني زبوناً شارياً، وقال لي: أتريد الحقيقة التامة أم تريد الحقيقة المتداولة؟ (وضحكت لهذا التمييز بين نوعين من الحقيقة، ولكنني كتمت ضحكتي حتى لا أوحي بعدم جديتي) إذا كنت تريد الحقيقة التامة، فأنا لا أعرف سوى أنني عندما فتحت هذا الدكان قبل حوالى خمسين سنة ـ وكما ترى هي جزء من

Twitter: @ketab_n

بيتي ـ كانت هذه المفاتيح في البيت الذي ورثته عن جدي. وهذا البيت هو ملك لعائلتي منذ سنين لا حصر لها. وأذكر أن أبي قال لي إنه وجد هذه المفاتيح في البيت عندما توفي جدي، وأن جدي قال له إنها كانت في البيت نفسه وأنه لا يعرف من أين أتت وما الغرض منها ولمن هي؟ هذه هي الحقيقة التامة.

وتابع محدثي العجوز الإسباني صاحب الدكان كلامه، ومن دون أن ينتظر مني تعليقاً.

قال: أما الحقيقة المتداولة فهي أن في أكثر من بيت في حي الباياسين، مجموعة مفاتيح مماثلة. المفاتيح الكبيرة هي مفاتيح البيوت. والمفاتيح الصغيرة هي مفاتيح الدكاكين والكرمة (الحدائق أو «كارمن» بالإسبانية) والحمامات الخاصة. ومن المتداول في غرناطة أنها المفاتيح التي تركها العرب لبيوتهم ومحالهم عند من بقي في الحي من معارف وأصدقاء في ذلك الزمان، عندما غادروا غرناطة

Twitter: @ketab_n

مع «أبو العباد» آخر ملوك بني الأحمر عند سقوطها، على أمل أن يعودوا فيفتحوا بيوتهم وأرزاقهم حين يستعيد العرب الأندلس.

سكت صاحب الدكان الإسباني، وكأنه يمتحن وقع روايته عليَّ، وسألتني الزوجة الكهلة: هل نحن أقرباء؟ انظر إلى أنفي إنه أنف عربي. انظر إلى جبهتي إنها جبهة عربية. انظر إلى وجهي، تكاوينه عربية. نحن أقرباء. نحن أقرباء (ولو قالت انظر إلى أردافي لقلت لها إنها أرداف عربية). لكن الزوج قاطعها بحدة، وقال لي:

ـ هل تريد أن تشتري هذه المفاتيح؟ أبيعها لك أيها الأموي القادم من دمشق. قد تحتاج إليها إذا أردت العودة بعد خمسمئة سنة إلى بيت من بيوتك في «الباياسين».

وأرتج عليَّ، فاعتذرت من الغرناطي الإسباني صاحب الدكان بأنني تركت صكوك تمليك

Twitter: @ketab_n

إقطاع بني أمية في الأندلس في دمشق، وبالتالي فليس لي حق بهذه المفاتيح.

لكن صاحب الدكان العجوز ابتسم وهو يشيعني إلى الباب، وكأنه عرف السبب الحقيقي لتمنعي!

قلت له: لقد خفت إذا اشتريتها أن يعود العرب من أهالي الأندلس ذات يوم إلى غرناطة ليستردوا بيوتهم فلا يجدون المفاتيح حيث تركوها، فيضطروا للنوم في العراء خمسة قرون أخرى!

□ □ □

■ في غرناطة وقفت أحدّق في أسواقها وعماراتها وأنا أتساءل عن تلك الصلة التي تربط مدن الحضارة الإسلامية بتعاليم الماضي العظيمة وبالمنجزات الثقافية النموذجية التي حققها. وعن طريق الإسلام هذا المذهب الإنساني المنفتح كان ذلك الإلهام الروحي الذي هو سمة من سمات تراثنا المشترك. وتأملت طويلاً هذا التراث، الذي عرف في كل مكان،

Twitter: @ketab_n

ولا يزال يعرف، فترات ركود تاريخية طويلة، كيف يقاوم محاولات شتى لتدميره أو إلغائه أو نسيانه.

إن غرناطة تعيدك إلى مجرى التاريخ، الذي واصل السير منذ القرن الخامس عشر على الأقل بدون مشاركتنا كعرب أو كمسلمين فيه، فتشعر كم أوهنت الضربات التي جاءت من الخارج هذا التراث الجميل العريق، وكم شوّهته ومزقت أوصاله. فتكتشف كم ابتعد الإسلام اليوم عن فتوحاته الإنسانية ونأى عن ثقافته، فاتسعت الشقة بينه وبين العالم المعاصر. فبدل الانغلاق في مفهوم جامد، كما هو حال ثقافتنا اليوم، كان علينا ترك باب التفكير والتأمل مفتوحاً في ما يمثله التراث الإسلامي ومن ضمنه طابع العمارة الإسلامية وما تمثله الحداثة. وهنا كان من الممكن لمصيرنا أن يصبح أفضل مما هو عليه، فليس كل ما في التراث يعتبر قديماً أو عفى عليه الزمن، وليس ـ بالطبع ـ

Twitter: @ketab_n

كل ما في الحداثة يبشر بالتقدم أو بمزيد من الكفاءة.

ولما كانت غرناطة تضج بحديث العمارة الإسلامية فقد طُرح السؤال الصعب الذي حاول أكثر من مئة مهندس معمار من مختلف المشارب الفنية والخلفيات الثقافية والأقطار الشرقية والغربية أن يجيب عليه، وكل بطريقته: كيف تضفي المكانة التعبيرية على منجزات التراث المعماري الإسلامي العظيمة مع احترام أساليبها التعبيرية الإقليمية والدور الحقيقي الذي لعبه الإسلام في إلهام تصميمها، في الوقت نفسه الذي تسعى فيه إلى الاستفادة من أساليب التصميم الحديثة ومن تقنيات التنفيذ التي تتيح تلبية حاجات مجتمعاتنا الجديدة وتنوعها؟

بل كيف تتجنب خطرين لا يزالان يتهددان المعمار: أولهما تحديث يستورد من الخارج ويقحم دون تمييز على مجتمعات إسلامية. والثاني، وهو

Twitter: @ketab_n

نقيض الأول، نزعة تقليدية تتمثل في إقحام أشكال ومواد وعناصر مستقاة من آثار تقليدية على مبانٍ عامة أو خاصة بقصد إضفاء طراز أو طابع عام يوصف بأنه إسلامي؟

لم تستطع نخبة معماريي العالم التي اجتمعت في غرناطة أن تجيب على هذا السؤال الصعب. لأن الإجابة عليه لا تكمن في مشروع واحد أو في محاولة ما أو حتى عدة محاولات. إن الإجابة عليه هي جزء من مسار التاريخ السياسي والحضاري للشعوب، وهو مسار أجيال. والإجابة عليه أيضاً هي رهن بأن يستوعب المعمار على مر الزمان الثراء الثقافي والطفرة الإبداعية، بقدر ما عليه أن يستوعب أحلام المجتمع ذاتها لكي يغدو هو ذاته قوة دمج للزمان والمكان الذي يتم فيه الاحتكاك المتبادل بين البشر. إن الفكر الإسلامي المعاصر اليوم، والثقافة الإسلامية بمفهومها العريض، يحتاجان إلى

Twitter: @ketab_n

المشاركة بإيجابية في مغامرة التحديث الجارية، كما كان يحصل دائماً خلال عصور الازدهار، عندما كانت تملك طاقة روحية متجددة لا تساوم في الجماليات ولا تخاف من عبقرية الإبداع ولا من طموحات العباقرة.

إن جائزة العمارة قد حملت هذا التحدي إلى العالم الثالث. إلّا أنها حملت الأهم من ذلك وهو طلبها الوقوف في وجه ظاهرة الاجتثاث الثقافي. وذلك يتطلب الوصول إلى حالة، تكررت كثيراً في تاريخ الإسلام الثقافية، مؤداها أن أي ثقافة تبلغ مستوى كفاءتها وإشعاعها وإخصابها الأمثل وسط أولئك الذين يعيشونها وينتجونها عندما تلتقي جميع الأنشطة التي تؤلفها وتتضافر في سبيل تحقيقها.

إن هذا التحدي المطروح في العمارة يتطلب فتح باب الاجتهاد على مصراعيه. الاجتهاد في التحليل والدرس والفهم والتفسير بهدف تزويد

Twitter: @ketab_n

الفكر الإسلامي المعاصر بكافة الوسائل التي تتيح له الوقوف بطريقة موضوعية على ماضيه، والمشاركة على نحو إيجابي في مغامرة التحديث الجارية. لكن هذه المغامرة غير ممكنة ما لم تتجاوز الأوضاع القائمة في العالم الثالث اليوم (وفي المجتمعات الإسلامية بالذات)، فنثري، في جو مطلق من الحرية، وعلى غرار ما حفل به الإسلام في الماضي، البحوث والمنجزات التي يجري تحقيقها في أعظم البلاد تقدماً. عندئذٍ قد نلحق بركب الزمن وبحضارة العصر، أو نبقى محكومين بأبدية التخلف. والخيار يكمن فقط في حرية الاجتهاد.

□ □ □

في غرناطة، تذكرت أبا مسلّم، صاحب الدعوة عندما سُئِل: ما اللذة؟

فقال: إقبال الزمان وعز السلطان. وشعرت كم كنت قريباً من «أبو عبدالله الصغير» مؤسس الذل

Twitter: @ketab_n

العربي، عندما أدبر الزمان عنه وضاع السلطان منه، فلم يعد للذة من معنى، أو قريباً من نفسي التي فتنت بالماضي وهرولت إلى عزّه قائلة: ما كان أحلى الرجوع إلى متاهات التاريخ، وإن أنكره أصحابه ثلاثاً كل يوم وقبل صياح الديك!

Twitter: @ketab_n

٢ ـ قرطبة

يوميات دمشقي

■ «لما دخل يزيد الرقاشي على الخليفة عمر بن عبد العزيز، قال عمر: عظني يا يزيد.
فقال: إعلم أنك لست أول خليفة يموت.
فبكى عمر وقال: زدني يا يزيد.
فقال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم إلاّ أب ميت.
فبكى وقال: زدني يا يزيد.
فقال: يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الموت موعد.
فسقط الخليفة مغشياً عليه». □

«سراج الملوك»
محمد بن الوليد الطرطوشي

عندما وصلت إلى باب المسجد الجامع في قرطبة، سألت فردريكو، أحد الأدلاء السياحيين المنتشرين في ساحة المسجد المزروعة بأشجار البرتقال والليمون والنارنج المتدلية منها ثمارها، إذا كان يعرف أين يمكنني أن أجد

Twitter: @ketab_n

عبد الرحمن الداخل. كان الوقت بُعيد الظهر بقليل، وأفواج السياح تخرج من المسجد لتدلف إلى زواريب الحي اليهودي، الذي فيه الجامع، زائرة المطاعم والمقاهي والدكاكين المنتشرة في الأزقة التي تحيط بهذا المبنى التاريخي الرائع.

قال لي فردريكو، بإنكليزية سياحية ركيكة، إنه شخصياً لا يعرف أحداً بهذا الاسم ولم يسمع به. لكنه أشار إلى أن هناك قنصلية عربية في قرطبة لا يعرف أي بلد تُمثل، وهي على مقربة من الكنيس اليهودي. وأردف: يمكن أن تسأل عنها هناك. إلاّ أنه نصحني أن لا أطرق بابها إلاّ بعد الساعة الخامسة مساءً، لأن عبد الرحمن الداخل قد يكون مستسلماً قبل هذا الوقت للقيلولة، وليس من الآداب الأندلسية إزعاج أحد وقت «السياستا».

قلت: إذا كنت لا تعرف عبد الرحمن الداخل، فهل تعرف عبد الرحمن الأوسط أو عبد الرحمن

Twitter: @ketab_n

الناصر. ألم يمروا كلهم من هنا؟ أليسوا هُم الذين شيدوا هذا المسجد؟ أليس لهم مقامات في هذا الجامع؟

أجاب: سبق وقلت لك إنني لا أعرف أحداً باسم عبد الرحمن الداخل كما أنني لا أعرف الأوسط ولا الناصر. ربما مروّا جميعهم من هنا. لكن ليس على أيامي. لماذا لا تتصل بأحدى القنصليات العربية مستفسراً؟

قلت: لا أعرف أن للأندلس سفارة اليوم في إسبانيا، ولا للأمويين قنصلية في قرطبة. لكنني أعرف أن قرطبة تشبه دمشق، وأن عبد الرحمن الداخل قد اختار قرطبة عند الفتح العربي، لأن موقعها يشبه إلى حد كبير موقع دمشق. فدمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى، وقرطبة تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير، ونواعيره تشبه نواعير الغوطة القديمة. ويطل على دمشق جبل قاسيون، كما يطل على قرطبة جبل العروس

Twitter: @ketab_n

كما سماه العرب، أو «سييرا مورينا» ـ أي الجبال السوداء. هذا إلى جانب تشابه البيوت بين المدينتين وأسلوب الحياة والمعيشة، وطبائع الناس ووجود النصارى فيها، حتى قال الجغرافيون العرب إن «قرطبة شامية في هواها».

قال: إنني لم أفهم نصف ما تعنيه من هذه السفسطائية الجغرافية التاريخية. أوضح كيف يمكنني أن أساعدك؟

ولعلّ فردريكو استدرك الموقف، لما رأى على وجهي ملامح ابتسامة ساخرة، فسألني: مَنْ هم عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر حقاً؟ وماذا يعملون؟

قلت له: أمراء عرب من بني أمية جاءوا قرطبة فاتحين قبل ما يزيد على خمسمئة سنة، وبنوا هذا المسجد الجامع، الذي وضع قرطبة على خارطة الحضارة العالمية في العصر الوسيط، وحوّل هذه

Twitter: @ketab_n

المدينة اليوم إلى قبلة سياحية ندر وجودها. أما ماذا يعملون اليوم، فأعتقد أنهم تقاعدوا مقيمين في أحد بيوت قرطبة القديمة، هو عبارة عن قصر اسمه الزهراء، أصبح فيما بعد اسم مدينة، يتأملون انهيار الأمجاد العربية دون أن يبكوها، وقد كانوا من بُناتها.

لم يفهم فردريكو معظم ما قلته، ظاناً ـ عن حق ـ بأنني سائح عربي مهووس بالتاريخ جاء ليتثاقل عليه في يوم حار ازدحمت فيه أفواج السياح (وجلهم من الأوروبيين وبعض اليابانيين ولم أتبين من بينهم عربياً واحداً) ليعكر عليه صفو روتينه التقليدي.

قلت لفردريكو: أتقبل دعوتي إلى الغداء بعد انتهاء دوامك؟ فأنا عربي من بني أمية جئت من بلاد الشام، البلاد التي قدم منها كل من عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر، زائراً بالطبع لا فاتحاً، وبوسائل المواصلات الحديثة لا فارساً ولا

Twitter: @ketab_n

راجلاً. فأنا أحتاج إلى دليل سياحي معي ولوحدي، يستطيع أن يجيب على بعض حشريتي التاريخية. وقبل أن يجيب فردريكو، كنت قد نفحته حفنة من «البيزاتا»، التي أسفرت عن ابتسامة عريضة تعني القبول. وأعطاني فردريكو موعداً في مقهى قريب.

□ □ □

كان مقهى «سان بدرو» في زاوية زنقة ـ حسب التعبير المغربي لما نسميه نحن الزقاق أو الزاروب ـ يطل على ساحة صغيرة مرصوفة بالحجارة من النوع التي تسير عليه عربات الخيل والتي لها عدة مواقف في زوايا الشوارع، لتنقل السياح في جولات بين آثار المدينة. اشتريت جريدة إنكليزية وانتظرت وصول فردريكو، وأنا جالس على رصيف هذا المقهى وعشرات السياح يمرون ويحتلون الطاولات من حولي. وقلقت لتأخر فردريكو، حتى خشيت أن يكون قد قرر أن

Twitter: @ketab_n

يخلف بالموعد. وندمت على دعوته إلى الغداء. وحاولت أن أستجمع ملامح وجهه، التي يبدو وكأنها اختفت من ذاكرتي. وأدركت كم شحَّ نظري، لكنني قلت لنفسي لا بد من أنه سيعرفني، فليس في المكان من له ملامح عربية واضحة سواي، خصوصاً أن المقهى قد غصَّ بالسياح اليابانيين.

وأطل فردريكو، بعد قلق قصير، وكان قد نزع لباسه الرسمي (يونيفورم) كدليل سياحي، وعرفني قبل أن أميّزه، وسحب كرسياً وجلس قبالتي. وما إن التهمنا «البابيلا» وتبادلنا الأنخاب من «السانكريا»، حتى بادرني فردريكو: لماذا تسأل عن عبد الرحمن الداخل أو الأوسط أو الناصر، وماذا يعنون لك؟

قلت: لهذا الأمر قصة طويلة، سأختصرها لك، بأنني أتيت قرطبة قادماً من غرناطة، حيث بحثت هناك عن «أبو عبد الله الصغير» آخر ملوك العرب

Twitter: @ketab_n

من بني الأحمر، الذي سلّم آخر دولة عربية في الأندلس إلى إيزابيلا وفرديناند، ملكي إسبانيا، من دون معركة واحدة. فأسس بذلك مدرسة الذل العربي التي نعيش في كنفها منذ ١٦ كانون الثاني ١٤٩٢، يوم سقوط غرناطة. وكان ذلك التاريخ آخر يوم عربي مشهود في إسبانيا. وبذلك يكون «أبو عبد الله الصغير» مؤسس الذل العربي كما نعرفه اليوم، والذي بدأ قبل خمسة قرون. لقد حاولت أن أجده في غرناطة لأقتله، لكنني عدتُ وعفوت عنه عندما تعزيت بما تركه بنو الأحمر من آثار وأمجاد، أروعها بلا شك قصر الحمراء وتوابعه[1].

وسألني فردريكو، وقد بدا مشغول البال: هل تبحث عن عبد الرحمن الداخل أو غيره من عباد الرحمن لتقتلهم أيضاً؟

قلت له مبتسماً: لا، إنني أبحث عنه لأضمه وأقبله وأهنئه، لأنه هو الذي أسس العز العربي في

Twitter: @ketab_n

الأندلس، ولأنه الفاتح الذي حقق لقاء الحضارتين الإسلامية والمسيحية في دولة عربية بالأندلس، جعلت من التسامح دستورها، ومن هذا المسجد الجامع رمزها الخالد مدى التاريخ. أريده أن يحدثني كيف يمكن أن يُؤسَس عز عربي جديد على أنقاض ذل انزلق إليه آخر خلفائه من ملوك الأندلس. أريد أن أحدثه عن آلامي في عصر عربي لا يعرف إلاّ التعصب والقمع والعبودية، ولا يعرف إلاّ الدوس على تراث السلف الصالح الحضاري، فيعزز الطائفية والمذهبية بدل التسامح والتعايش، وينكر حريات الاجتهاد والبحث والعلم والتفكير، ولا يعرف من السياسة إلاّ الرأي الواحد. أما المساجد فلم تعد تشيّد إلاّ للتحريض على أبناء الوطن الواحد.

قال لي فردريكو، بعد أن استمع إلى «مرافعتي» عن أسباب سؤالي عن كل عبد الرحمن: أتعرف أنني حامل ليسانس في التاريخ من جامعة إشبيلية،

Twitter: @ketab_n

وخريج معهد الأدلاء السياحيين في مدريد، ولي مجموعة كراسات سياحية عن قرطبة (حملها معه). لكنني لا أستطيع أن أحدثك كثيراً عن أي عبد الرحمن ممن ذكرتهم، إنما أستطيع أن أحدثك ـ بشيء من الثقة كما آمل ـ عما تركه عبد الرحمن الأول والثاني والثالث في قرطبة من آثار ومعالم. من هنا قلت لك عندما سألتني بأنني لا أعرفهم.

□ □ □

ثم تابع فردريكو الحديث قائلاً: في عصر الفتوحات الإسلامية، نزل العرب في مدنهم التي صمموها وفي المدن القديمة التي افتتحوها، وصبغوها بالصبغة الإسلامية، وذلك بإقامة المساجد الجامعة التي كانت تتحكم في تخطيط المدينة وفي عمرانها. وبذلك كانت المساجد هي الأساس الذي يعتمد عليه العرب في إعطاء المدينة طابعاً إسلامياً. إذ إن المسجد الجامع يصبح بمرور

Twitter: @ketab_n

الزمن مركز المدينة وقلبها النابض. فمنه تتفرع الطرق الكبرى المؤدية إلى أبواب المدينة. وحول ساحته تقام الأسواق والحمامات والفنادق، وفيه تعقد الاجتماعات السياسية، وتوزع ألوية الجيش، وتدرس العلوم الدينية وغير الدينية. ويسيطر الجامع على الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وهكذا أصبحت قرطبة مدينة إسلامية، وهكذا كان بناء المسجد الجامع أساس العمران في المدن الإسلامية.

أما في المدن المفتوحة ـ أي المدن التي لم يؤسسها أو يبنها العرب ـ فقد كان المسلمون يكتفون بمشاركة النصارى في كنائسهم، كما فعلوا في الشام حين شاطروا نصارى دمشق في كنيسة يوحنا المعمدان، وهذا ما حدث في الأندلس إذ امتثل المسلمون الفاتحون لقرطبة للمبدأ نفسه، فشاطروا نصارى قرطبة كنيستهم العظمى التي كانت تقع داخل مدينة قرطبة، تاركين لهم

Twitter: @ketab_n

النصف الآخر يقيمون فيه شعائرهم الدينية. من هنا كانت بداية قصة المسجد الجامع في قرطبة.

بعد هذا العرض التاريخي الوجيز، شعر فردريكو أن عليه أن يعزز معلوماته بصور حية. فقال لي: لنمشِ معاً في الأحياء التي تحيط بالجامع، فتعاين الأهمية التي لعبها المسجد في المدينة. فكما ترى الآن، كانت الأسواق عامرة بالثياب والديباج، والدكاكين زاخرة بالعطور والطيب، وحوانيت الصاغة والعطارين، هي ذاتها كالتي تراها أمامك الآن، مع فارق أنواع البضاعة وأذواق الناس، وغياب السياح. وكانت تتفرع من ساحة الجامع طرق المدينة الرئيسية ودروبها وشوارعها التي تفضي إلى أبواب الأسوار الخارجية. ولا تنسَ يا صديقي العربي، أن جامع قرطبة من الوجهة الفنية أروع أمثلة العمارة الإسلامية والمسيحية على السواء في العصور الوسطى. كذلك لا تنسَ، أنه كان أكبر جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية

Twitter: @ketab_n

واللغوية، ويفِد إليها الطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامي للدرس والتحصيل. كما كان مركزاً للحج في الأندلس، يفد إليه المسلمون لزيارته والتبرك ببقعته والاحتفال فيه بليلة القدر. فاشتهرت مدينة قرطبة بسببه حتى قيل إنه ليس في بلاد الأندلس والإسلام أكبر منه.

ولم أخفِ على فردريكو، وأنا أستمع إليه وقد صار بيننا نوع من الإلفة، شعوري بشيء من الافتخار كعربي يحمل تاريخاً مثقلاً بالمجد على كتفيه. فقلت له بشيء من المرح: ألم يبالغ العرب في عظمة هذا الجامع، كما يبالغ الأدلاء السياحيون من أمثالك في وصفه اليوم؟

ابتسم فردريكو، وكأن هذه اللفتة قد أعجبته من عربي، فقال: صحيح أن مؤرخي العرب في الأندلس قد بالغوا في وصفهم له، فصوروه تصويراً أقرب إلى الخيال، وعظّموه وبجّلوه. لكنه

Twitter: @ketab_n

في زمانه، كان في الواقع، المثل في العظمة والاتساع من كثرة الزخارف والجمال. ألا تسامح بني قومك إذا هم بالغوا في الإطناب؟ أليست هذه صفة عربية؟

قلت لفردريكو: ما دمنا في حديث المبالغات التاريخية، فهل هناك قصص إسبانية متداولة عن جامع قرطبة، قد تستطرفها؟

أجاب فردريكو: لقد دخل المسجد الجامع في قرطبة فولكلور موضوعات القصص الشعبي الأندلسي الذي تواتر على مر العصور وأورده المؤرخون نقلاً عن ألسنة العامة. فمما يتداوله الإسبان من هذا الفولكلور، أنه لما دخل ألفونسو الأول ملك أرغون مدينة قرطبة في العام ١٠٨٧، دخل النصارى هذا المسجد بخيلهم. فأقاموا به يومين لم تبُل دوابهم أو ترث حتى خرجوا منه. وهناك حكاية أخرى يرويها الإسبان، تدل على قداسة البقعة التي بُني فيها الجامع. تقول الحكاية

Twitter: @ketab_n

إن موقع الجامع كان حفرة كبيرة يرمي فيها أهالي قرطبة قمامتهم. فلما قدم النبي سليمان بن داوود ودخل قرطبة، قال للجن: اردموا هذا الموقع وعدلوا مكانه، فسيكون فيه بيت يُعبد الله فيه. ففعلوا ما أمرهم به وبني الجامع بعد ذلك.

ولما رأى فردريكو بعض الدهشة على وجهي لدخول الجن إلى حكايات الفولكلور الأندلسي الإسباني، أردف قائلاً: حتى لا تضيع في ذهنك حقيقة عظمة جامع قرطبة، فتختلط عندك الحقائق بالأساطير، فإن جامع قرطبة كان موضع تباهي وفخر أجداد المسلمين والمسيحيين على السواء، إذ ينظر إليه على أنه من الآثار الجليلة التي تزدان بها الأندلس. ثم إنه كان يُعد أعظم جامعة غربية في أوروبا في العصر الوسيط. وقد قيل إن الراهب جيربير الذي أصبح فيما بعد البابا سيلفستر الثاني، أتمَّ دراسته في جامع قرطبة. كذلك كثيرون من نصارى الأندلس من أهل الذمة قد تعلموا فيه

Twitter: @ketab_n

علوم العربية، وتثقفوا بالثقافة العربية، إذ وجدوا أنفسهم مضطرين إلى مشاركة المسلمين في حياتهم، رغبة في تقلد المناصب الكبرى في الإدارة ودواوين الحكومة.

□ □ □

قلت لفردريكو: لنعد إلى البحث عن أصحابي، عبد الرحمن الداخل والأوسط والناصر، من الذين ادعيت أنك لا تعرفهم، فإذا بهم أسياد التاريخ الذي ترويه. ولعل حكايتهم تكمن في الحديث عن بناء الجامع ـ الأسطورة ـ الذي تحول عندي، بعد زيارتي الطويلة له اليوم، إلى راوية بحيث من الممكن استنطاق أعمدته وأروقته وسقوفه ومئذنته. فلا بد أن تروي لنا هذه الحجارة والأخشاب قصة العز العربي في الأندلس بالأمس، وقد أضعناه اليوم.

قال فردريكو: حتى نتحدث عن بناء المسجد، لا بد من أن نتذكر عظمة قرطبة وما بلغته في زمن

Twitter: @ketab_n

الخلافة الأموية من عمران. وظلت قرطبة في ازدهار حتى سقطت الخلافة الأموية، ودخلها البربر عام ١٠١٠، وعاثوا في أرضها سفكاً وفساداً. بعد ذلك انطفأت شعلتها، وانتقلت مكانتها السامية إلى مدينة إشبيلية.

أما قصة بناء الجامع، فهي قصة طويلة، استمرت عشرات السنين، لكن بدايتها هي الأهم. فلما فتح المسلمون قرطبة، اختاروا كنيستها الكبرى المعروفة بـ «سان فنسان» التي تقع داخل المدينة نفسها لإقامة مسجدهم، شاطروا نصارى قرطبة هذه الكنيسة. وأقاموا في شطرهم مسجداً بسيطاً، وليس بينهم من كان عارفاً بفن البناء. فأسس حنش بن عبد الله الصنعاني قبلته بيديه.

ولما وصل عبد الرحمن الداخل وأسس دولة بني أمية كان قد ضاق المسجد البسيط الساذج البناء بعدد المصلين، فدعا رؤساء نصارى قرطبة إلى مقابلته وساومهم في بيع نصيبهم من الكنيسة

Twitter: @ketab_n

ليدخله في المسجد، وأوسع لهم البذل وفاءً بالعهد الذي صولحوا عليه. فطلب النصارى لقاء ذلك بناء كنيسة لهم خارج الأسوار. فوافق عبد الرحمن الداخل على ذلك، وشرع في هدم الكنيسة والمسجد القديم، وبنى جامع قرطبة بأسلوبه الجديد في العام ٧٨٥م. ويقال إنه أتمه في عام واحد.

□ □ □

لما سقطت قرطبة في يد فرناندو الثالث، ملك قشتالة في حزيران من العام ١٢٣٦، كان المسجد الجامع في قرطبة على حاله، كما تركه المرابطون والموحدون. لكن سرعان ما تحوّل هذا البناء الشامخ إلى كنيسة عُرفت بكنيسة «سانتا ماريا العظمى». لكن الإسبان منذ أواخر القرن الخامس عشر، بدأوا يبدلون في بنية هذا الأثر الإسلامي بإضافات وتغييرات أساسية، عبر عنها شارلكان بقوله: «لو كنت قد علمت بما وصل إليه ذلك، لما

Twitter: @ketab_n

كنت قد سمحت أن يمس البناء القديم. لأن ما بنيتموه موجود في كل مكان، وما هدمتموه فريد من العالم أجمع».

صحيح أن إقامة كاتدرائية قوطية الطراز في قلب الجامع قد شوهّت البناء القديم، وقضت على الوحدة المعمارية للمسجد. إلاّ أنه ما انتهى بناء هذه الكاتدرائية في العام ١٥٩٩، والتي أشرف على بنائها ثلاثة مهندسين معماريين من عائلة واحدة، هم هرنان رويث، الأب والابن والحفيد، حتى بدت أثراً معمارياً مختلفاً، بعد أن أقيم على جدران الجامع في الداخل مصلّيات عديدة ذات طابع يقتفي طراز عهد النهضة.

وفي العام ١٦٨٢ أقام الأسقف فراي آلونسو دي مدينا، المصلّى المعروف بـ «لاكونسبسيون» وزينه بتماثيل رائعة أنجزها المثّال الغرناطي بدرو دي ميتا. وفي العام ١٧٠٥ أقيم مصلّى آخر عُرف بـ «سانتا

Twitter: @ketab_n

تيريزا» أو مصلّى الكاردينال سالازار. وفي القرن الثامن عشر انتزعت سقوف الجامع الخشبية بعد أن تآكلت بفعل الزمن، وأقيم بدلاً منها قبب جصية. وفي غضون القرن التاسع عشر أجريت في الجامع عدة إصلاحات، أهمها ترميم المحراب. وأعلن المسجد الجامع في العام ١٨٨٢، أثراً قومياً، وعهد بإدارته إلى مدرسة العمارة في مدريد التي تابعت المحافظة على ترميمه من مختلف الجهات. وفي العام ١٩٩٤، أعلنت منظمة «اليونسكو»، قرطبة وجامعها ومن ضمنه كاتدرائيتها، من التراث العالمي.

□ □ □

ركبتُ إحدى عربات الخيل التي تنتشر في الأحياء المجاورة للجامع في قرطبة من التي يستأجرها السياح، وسألت السائس أو العربجي ـ الدليل (الذي كان من حظي أنه يجيد الإنكليزية ـ السياحية مما سهل عليَّ إمكانية التخاطب معه)

Twitter: @ketab_n

عن اسمه. فقال: ألونسو. قلت لألونسو (وهو اسم أسمعه للمرة الأولى): خذني في جولة في الأزقة الخلفية للمدينة القديمة وأرني الدكاكين التي لا يرغب بها السياح التقليديون عادة.

حار ألونسو كما يبدو في فهم طلبي، وصلّب بيده على وجهه، وأرخى العنان لحصانه، وسار. وبعد أن انطلق استدار نحوي وسألني عن طبيعة مهنتي. ولما قلت له بأنني صحافي عربي، هزّ برأسه، وكأنه يوحي لي بأنه قد فهم مرادي. لكن عندما أخذ يشرح لي أسماء الأبنية والشوارع التي نمر بها وتاريخها بأسلوب السرد السياحي التجاري، عاد وسألني عند أي دكان أريد أن أقف، وكلها بالنسبة إليه متشابهة في محتوياتها وبضائعها وأسعارها، وحتى بزبائنها. وفي الواقع لم أكن أبحث عن دكان معيّن، بقدر ما أردت أن أتفادى أمكنة السياحة العامة. فقررت أن أحسم حيرة السائس، وحيرتي، فقلت له: هل تعرف

Twitter: @ketab_n

مكتبة أو دكاناً يبيع الكتب القديمة أو المخطوطات؟ فهتف العربجي السائس صائحاً: سي سينيور!

وقفت العربة في زقاق ضيّق أمام دكان ذي بابين خشبيين ضيّقين، وقفز ألونسو من العربة التي سدت الطريق وقال بصوت مرح: لعلّي وجدت لك ضالتك.

كان الدكان ـ المكتبة، مكاناً قليل العرض، طويلاً كممر، ينتهي إلى باحة (أو أرض ديار، كما نسميها نحن في الشام) في وسطها فسقية ماء وأشجار حمضيات قصيرة، وإلى جانبها طاولة قديمة وكبيرة تجلس وراءها سيدة، لم أتبين ملامحها في البداية. حييت السيدة عندما دخلت إلى الباحة في آخر المكتبة، وقلت لها إنني صحافي عربي قادم من بيروت، أريد أن أتفرج على ما عندها من كتب أو مخطوطات عن تاريخ الأندلس، لعلي أجد على رفوفها أبطالي الذين أبحث عنهم: عبد الرحمن الداخل والأوسط

Twitter: @ketab_n

والناصر، بعد أن استفسرت عنهم في المدينة، ولم أجد لهم أثراً. حتى إن بعض مَنْ سألت أنكر وجودهم.

ابتسمت السيدة لحكايتي وعرّفت بنفسها قائلة بأنها درست في مدريد في «الاسكوريال» علم المكتبات، وأنها عملت في مكتبات عدد من الجامعات الإسبانية، حتى عادت إلى قرطبة لتستقر في هذا الدكان ـ المكتبة التي ورثتها عن أبيها الذي ورثها بدوره عن جده. ويبدو أن العائلة كلها عائلة «مكتبجية». وسألتني عن اسمي، فقلت لها: رياض. فابتسمت وقالت يعني «كارمن» بالإسبانية (أي حديقة)، إلاّ أنه يُستعمل في الإسبانية للإناث. قلت لها: صحيح أن رياض اسم بالعربية يستعمل للذكور، لكنني أعرف عدداً من السيدات الدمشقيات من جيل والدتي، يحملن اسم رياض وعصام وغيرهما من أسماء الذكور، إلاّ أنه

Twitter: @ketab_n

تقليد يبدو أن الجيل الجديد قد تخلّى عنه.

لما وجدت نفسي في متاهة الحديث عن الأسماء العربية والإسبانية، سألتها: لكن ما اسمك؟ قالت: تيريزا، ولكن ينادونني طوطة. قلت: ماذا؟ قالت: طوطة. قلت: هل هذا هو اسم الدلع الذي تحبينه. قالت: لا على العكس. إن اسمي الحقيقي هو طوطة، ولكن عندما كبرت غيرته إلى تيريزا لأنه اسم غير مألوف أو منتشر في إسبانيا ولا يصلح إلاّ للصبايا.

في هذه اللحظة بالذات، أمعنت النظر بالسيدة، فإذا بتقديري هي امرأة في منتصف الأربعينيات على قسط وافر من الجمال، ذات شعر أسود طويل وقيافة إسبانية سمراء. وبالطبع لا يسأل الرجل عادة المرأة عن عمرها، خصوصاً إذا كان غريباً. فسألتها: يبدو وكأنك تعرفين العربية؟ قالت: لقد تعلمتها في دراستي بـ «الاسكوريال» بحكم تخصصي الأندلسي. ولكن لا أجيد منها

Twitter: @ketab_n

إلاّ الفصحى، التي تعينني على قراءة عناوين الكتب والمخطوطات.

قلت لها: لقد استوقفني اسمك الغريب هذا. (وكنت أريد أن أقول لها بأن جمالها قد استوقفني أيضاً). هل من سر أو حكاية عربية ـ أندلسية فيه؟

قالت: كان والدي مدرساً للتاريخ في مدارس قرطبة وورّاقاً يعمل مع جدي في هذا الدكان، فأراد أن يطلق عليَّ، وكنت ابنته الوحيدة ـ اسماً تاريخياً، فاختار اسم طوطة. وقبل أن تسألني عن طوطة هذه، أقول لك إنها الملكة المسيحية التي جاءت مع حفيدها «شانجة» المعروف بـ «سانشو السمين» إلى قرطبة في العام ٩٥٨ تطلب المعونة من عبد الرحمن الناصر (أحد الذين تبحث عنهم) لاستعادة عرش حفيدها في ليون وقشتالة بعد أن عزله أردون الرابع. وعقد عبد الرحمن الناصر مع الملكة طوطة حلفاً. وأرسل جيشاً استطاع أن يعيد

Twitter: @ketab_n

حفيدها شانجة إلى عرشه، بعد سنتين وذلك في العام ٩٦٠. وكانت أول ملكة مسيحية تتحالف مع أمير مسلم.

انتظرت السيدة طوطة قليلاً، بعد هذا التفسير التاريخي لاسمها، وقالت لي: إذا كنت تبحث فعلاً عن كتب أو مراجع عن حُكام قرطبة أو الأندلس، وعن أبطالك «الثلاثي عبد الرحمن» فالأجدر بك أن تبحث عن رابع لهم، هو في رأيي الأهم. لأنه هو الذي أعطى قرطبة عظمتها الثقافية ومركزها العلمي وقيمتها الفنية. وهو في صنعتنا الورّاق الأول بين خلفاء الأندلس، وصاحب الحركة العلمية في قرطبة في عصر بني أمية. إنه الحكم المستنصر.

□ □ □

قلت لطوطة: اشرحي لي حكاية الخليفة الورّاق هذا؟

قالت: كانت قرطبة أكثر بلاد الأندلس كُتباً،

Twitter: @ketab_n

وأهلها أشد الناس اعتناء بخزائن الكتب. وهكذا انصرف أهل قرطبة إلى اقتناء الكتب، حتى كانت الكتب من أروج متاجرها (ولم تعد هكذا اليوم) حتى قيل: «إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه، حُملت إلى قرطبة حتى تُباع فيها. وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته الموسيقية حملت إلى إشبيلية».

جاءت هذه المقولة المتداولة نتيجة تشجيع أمراء بني أمية للثقافة والفنون والآداب. فقد احتضنوا الشعراء والكتّاب واهتموا باقتناء الكتب النادرة. لقد بعث الأمير عبد الرحمن الأوسط عباس بن ناصح الحريري، أمين مكتبته والرجل الذي أسس مكتبة قرطبة، إلى المشرق للبحث عن الكتب القديمة النادرة. فأتى له حريري الأندلس من السند والهند وغيرها من البلدان بأمهات المخطوطات والكتب. فكان أول من أدخلها إلى الأندلس، وعرّف أهلها بها.

Twitter: @ketab_n

وكان الأمير الحكم المستنصر الذي تولى الخلافة بعد عبد الرحمن الناصر، أكثر الخلفاء حباً للكتب، حتى قيل إنه جمع من الكتب ما لا يحد ولا يوصف كثرة ونفاسة، وقدّرت بأربعمئة ألف مجلد. وإنهم لما نقلوها صرفوا ستة أشهر في نقلها. وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحي، باذلاً فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت بها خزائنه. وكان ذا غرام بها. ويقول معاصروه إنه قلما يوجد كتاب من خزائنه إلاّ وله فيه قراءة أو نظر أو تعليق، مهما كان موضوع الكتاب. وكان يُعنى بكتابة نسب المؤلف ومولده وتاريخ وفاته. وكان الحكم محباً للعلماء، مكرماً لهم، يبعث في استقدامهم من المشرق ويرحب بهم ويكرم مثواهم ويرفع منازلهم عنده. وكان يُعين الكتّاب بالمال على كتابة مؤلفاتهم. فجمع في قصره الحذّاق في النسخ والمهرة في الضبط والمجيدين لفن تجليد الكتب. فاجتمعت له في

Twitter: @ketab_n

قصره في قرطبة خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده.

وكان يبعث في شراء الكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار، فيزودهم بالأموال الطائلة لشرائها، حتى جلب منها إلى الأندلس ما لم يعهدوه من قبل. وبعث في طلب كتاب «الأغاني» إلى مصنفه أبي الفرج الأصفهاني، ودفع إليه فيه ألف دينار. فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مكتوبة من هذا الكتاب قبل أن يصدر في بغداد.

□ □ □

توقفت طوطة عن الحديث، وتطلعت إليَّ وفي عينيها شيء من الأسى، وقالت لي: هذه هي أمجاد قرطبة الأموية التي يجب أن تكتب عنها، والتي تعادل أمجاد العمارة الإسلامية في المسجد الجامع. لكن الحجر يرد عاديات الزمن، أما الورق فيبلى. عليك بالمستنصر، وأجّل الداخل والفاتح والناصر.

Twitter: @ketab_n

بدت طوطة في هذه اللحظة، وقد تدفقت حماسة في حديثها، أكثر جمالاً مما هي عليه. فقلت لها محاولاً تطويل الحديث: أليس عندك كتاب تبيعينه لي أحمله ذكرى من قرطبة ومنك وأنا عائد إلى بيروت؟

ابتسمت طوطة بشيء من الخبث وقالت: نعم عندي لك كتاب. ولكنه بالإسبانية، ولا أعرف إذا كان له ترجمة بالإنكليزية أو الفرنسية أو العربية. الكتاب ليس بقديم، إذ صدر في العام ١٩٧٤، بعنوان: «الثورة الإسلامية في الغرب»[٢] للمؤرخ الإسباني اغناسيو أولاغي. وفحوى الكتاب الذي يشكل رؤية تاريخية مختلفة، أن العرب لم يغزوا الأندلس بقوة السلاح، إنما بقوة الأفكار ولو غزا العرب إسبانيا عسكرياً لما خمّرت الخميرة الإسلامية العجين الأندلسي، لتخرج تلك الحضارة الأندلسية الفريدة في التاريخ والتي يعود إليها انتشال الغرب من الظلمة في عصر النهضة،

Twitter: @ketab_n

فتاريخ العرب في إسبانيا هو ثمرة جدل وتطور الأفكار، وليس تكتيكات أمراء الجند المدججين بالسلاح.

اشتريت النسخة الإسبانية من هذا الكتاب، ولما أدارت طوطة ظهرها، ألقيته فوق أحد الرفوف وودعتها على عجل. ولما استغربت طوطة الأمر، قلت لها: إذا كان العرب لم يغزوا الأندلس؛ فماذا أفعل أنا هنا؟ عليَّ الهرب فوراً من قرطبة، إذ ليس لي من عبد الرحمن واحد ليحميني وإن العزّ العربي الذي أبحث عنه والذي أسسوه ليس إلاّ أعمدة من الوهم. وخفت.

وأسرعت إلى عربة ألونسو قائلاً له بلهفة: إرفع الكرباج واضرب حصانك حتى يُسرع أيها القرطبي. إنهم يقتلون تاريخ الأمجاد العربية، ويغتالون أبطالها. أليس كذلك؟

وبالطبع لم يفهم ألونسو الموضوع، وانطلقت

Twitter: @ketab_n

العربة والحصان يصهل، حتى خلت أنني أسمع جواد عبد الرحمن الداخل وهو يحمحم فوق أسوار قرطبة[٣].

الهوامش:

(١) راجع «المفكرة الأندلسية (١): يوميات أموي في غرناطة ـ محاولة القبض على مؤسس الذل العربي». «النهار» ـ الإثنين ٢ تشرين الثاني ١٩٩٨.

(٢) صدر هذا الكتاب بالعربية مختصراً بعنوان: «العرب لم يغزوا الأندلس ـ رؤية تاريخية مختلفة» لإسماعيل الأمين، عن شركة رياض الريّس للكتب والنشر ـ لندن ١٩٩١.

(٣) لمزيد من المعلومات عن قرطبة راجع «تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس» لمؤلفه الدكتور السيد عبد العزيز سالم ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ١٩٨٨.

Twitter: @ketab_n

كتب صدرت للمؤلف

١ ـ **موت الآخرين** ـ شعر، ١٩٦٢.

٢ ـ **الفترة الحرجة** ـ دراسات نقدية (١٩٦٠ ـ ١٩٦٥). الطبعة الأولى ١٩٦٥. الطبعة الثانية مزيدة وليست منقحة، بعنوان فرعي «**نقد في أدب الستينات**» ـ ١٩٩٢.

٣ ـ **صراع الواحات والنفط** ـ هموم الخليج العربي. الطبعة الأولى ١٩٧٣، الطبعة الثانية ١٩٧٤.

٤ ـ **البحث عن توفيق صايغ** ـ شعر، ١٩٧٥.

٥ ـ **المسار الصعب** ـ المقاومة الفلسطينية: منظماتها، أشخاصها، علاقاتها. ١٩٨٦ (مع دنيا نحاس) [صدر بالإنكليزية أيضاً].

٦ ـ **ظفار** ـ قصة الصراع السياسي والعسكري في الخليج العربي (١٩٧٠ ـ ١٩٧٦) ـ ١٩٧٨.

٧ ـ **الخليج العربي ورياح التغيير** ـ مستقبل الوحدة والقومية والديموقراطية. الطبعة الأولى ١٩٨٦، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

٨ ـ **وثائق الخليج العربي** ـ طموحات الوحدة وهموم الاستقلال. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩٠.

Twitter: @ketab_n

٩ ـ **جواسيس العرب** ـ صراع المخابرات الأجنبية. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٠ ـ **شخصيات عربية من التاريخ**. الطبعة الأولى ١٩٨٧، الطبعة الثانية ١٩٨٩.

١١ ـ **المسيحيون والعروبة** ـ مناقشة في المارونية السياسية والقومية العربية. الطبعة الأولى ١٩٨٨، الطبعة الثانية ١٩٩١.

١٢ ـ **العرب وجيرانهم** ـ الأقليات القومية في الوطن العربي. ١٩٨٩.

١٣ ـ **قبل أن تبهت الألوان** ـ صحافة ثلث قرن. ١٩٩١.

١٤ ـ **رياح السموم** ـ السعودية ودول الجزيرة بعد حرب الخليج، ١٩٩١ ـ ١٩٩٤. الطبعة الأولى ١٩٩٤، الطبعة الثانية ١٩٩٥. الطبعة الثالثة ١٩٩٧.

١٥ ـ **أكتب إليكم بغضب** ـ كيف تقول «لا» في عصر «نعم». ١٩٩٦.

١٦ ـ **ثلاثة شعراء وصحافي** ـ رسائل جبرا ابراهيم جبرا، يوسف الخال وتوفيق صايغ إلى رياض نجيب الريّس. ١٩٩٦.

١٧ ـ **رياح الشمال** ـ السعودية والخليج والعرب في عالم التسعينات. ١٩٩٧. الطبعة الثانية ١٩٩٧.

١٨ ـ **صحافي ومدينتان** ـ رحلة إلى سمرقند وزنجبار. الطبعة الأولى ١٩٩٧

١٩ ـ **رياح الجنوب** ـ اليمن ودوره في الجزيرة العربية (١٩٩٠ ـ ١٩٩٧). الطبعة الأولى ١٩٩٨

٢٠ ـ **حديث صحافي مع الإمام علي بن أبي طالب**. الطبعة الأولى ٢٠٠٠

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رياض نجيب الريّس

Twitter: @ketab_n
28.3.2012

المفكّرة الأندلسية

«أبو عبد الله الصغير» صاحب غرناطة هو صاحب هذا الزمان العربي الرديء. هو صاحب مأساة التيه العربي الذي نعيشه اليوم. هو عضو مؤسس ومشارك وفعّال وأصيل ورديف في حزب الهزيمة العربية الدائمة (...).

ويحك يا آخر ملوك العرب في الأندلس، يا آخر الأمجاد، يا بداية الذل. عد إلينا يا أبا العباد. الكل غافر لك. حتى أنا.

RIAD EL-RAYYES BOOKS

1855134160